

التنظير للعلمانية في فكر محمد أركون

الاستاذ : بوترة سعد

جامعة الجزائر 02

البريد الالكتروني: sadboutara76@gmail.com

الملخص

خطاب أركون في العلمانية يمثل قطيعة مزدوجة؛ مع الخطابات الرافضة والمعادية للعلمانية من جهة، ومع الخطابات المروجة لها والتي تعتبرها حلا سحريا ، وبذلك يمكن أن يكون هذا الخطاب النقدي نقطة بداية لمرحلة جديد يتم فيها إعادة تعريف المفاهيم وابتكارها كوسيلة للتحرر من التبعية الفكرية والثقافية التي ليزال الفكر العربي منذ مطلع عصر النهضة قابعا فيها.

الكلمات المفتاحية: علمانية، أركون، فكر أركون

Résumé

Discours Arkoun dans laïc représente une double rupture , avec les aboutissants et interventions d'une main anti-laïques , cependant promotrices ses lettres , qui Tatnbarha une panacée , et ne pouvait donc ce discours critique être un point de départ pour une nouvelle phase est la re- définition des concepts et l'innovation comme un moyen de libération de la dépendance intellectuelle et culturelle qui reste la pensée arabe depuis le début de la Renaissance accroupie .

يعد مصطلح العلمانية من بين أشهر المصطلحات المتداولة التي أثارت وتثير العديد من القضايا والإشكالات. ولعل من أبرز الإشكاليات إثارة تحديد أصل ومعنى هذا المفهوم. بالإضافة إلى الالتباس المتعلق بترجمة هذا المصطلح إلى العربية . حيث نجد ترجمات مختلفة ومتناقضة باختلاف وتناقض المرجعيات و المنطلقات المؤسسة لها. و"تجدر الإشارة بداية إلى أن

كلمة "علمانية" حديثة الاستعمال والتداول في اللغة العربية، فالكلمة دخيلة على معاجمنا العربية.¹ وهذا ما جعلها من بين أبرز شعارات الفكر العربي الحديث التي كانت. ولا تزال. مدعاة للبس وسوء التفاهم، حول دلالتها المباشرة أو الدلالة المختزلة، نظرا لما يتسم به المصطلح من حمولة معتقدية كثيفة تزيد من التباسه، وتدعو إلى تجاوز مجرد عملية ترجمة أو نقل المصطلح من اللغات الغربية إلى استيعاب المصطلح المنقول وهضمه ليصبح أداة فكرية، لأن "الكثير من المصطلحات المنقولة لم تدخل في أعماق الفكر النقدي وما زال طافيا على وجه اللغة، مثل الحطام المبعثر على وجه الماء بعد العاصفة."²

" يعود أصل كلمة العلمانية إلى اللاتينية: « وهي مأخوذة من كلمة SECULARISM وتعني الدنيا »³ وقد استخدم مصطلح « سكيولار » «secular» لأول مرة مع نهاية حرب الثلاثين عام (عام 1648) عند توقيع صلح وستفاليا وبداية ظهور الدولة القومية الحديثة، وهو التاريخ الذي يعتمده كثير من المؤرخين بداية لمولد الظاهرة العلمانية في الغرب.⁴ وبدأت الكلمة تتجه نحو مزيد من التركيب والإبهام على يد جون هوليوك john holyooke (1818 – 1906) أول من صك المصطلح بمعناه الحديث وحول إلى أهم المصطلحات في الخطاب السياسي والاجتماعي في الفلسفة الغربية.⁵ وقد عرفه بأنه: « الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادية، دون التصدي لقضية الإيمان سواء بالقبول أو الرفض.»⁶ ويقول معجم أكسفورد شرحا لكلمة (sacular) دنيوي أو مادي، وليس دينيا ولا روحيا:

¹ - يوسف القرضاوي، الاسلام والعلمانية وجهها لوجه، مكتبة رحاب، الجزائر، الطبعة الثانية، 1989، ص 51.

² - هشام شرابي، النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 85 .

³ . المعجم الوسيط، نخبه من المؤلفين، (ج 1 / 2) مطبعة مصر، القاهرة، 1986، ص 64 .

⁴ - عبد الوهاب المسيري عزيز العظمة، العلمانية تحت المجهر، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الأولى 2000، ص 11، 12.

⁵ . المرجع السابق، ص 12 .

⁶ . المرجع نفسه، ص 12 .

مثل التربية اللادينية، الفن أو الموسيقى اللادينية، السلطة اللادينية، الحكومة المناقضة.¹ بينما يقول «المعجم الدولي الثالث الجديد» مادة: (sécularisme) «اتجاه في الحياة أو في أي شأن خاص يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب أن لا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعاداً مقصوداً، فهي تعني مثلاً (السياسة اللادينية البحتة في الحكومة)»² و"تقول دائرة المعارف البريطانية مادة (secularism) «هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها».³ و"يقول قاموس «العالم الجديد» لوبستر، شرحاً للمادة نفسها: الروح الدنيوية، أو الاتجاه الدنيوي، ونحو ذلك وعلى الخصوص: نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة»⁴ وتشترك هذه التعريفات كلها في الاتجاه الدنيوي وإقامة الحياة على غير الدين، وقد تشكل مفهوم العلمانية "في دائرة الصراع السياسي الديني في أوروبا فهو نتيجة مخاض طويل للمجتمعات الغربية في صراعها مع الكنيسة وتوجيهه بالثورة الفرنسية وبالفكر الأنواري ثم الفكر الوضعي، وأنه استقر في صورة محددة في أدبيات فلسفة الأنوار.⁵ حيث كان يعني إقامة الفصل بين السلطة السياسية والسلطة الدينية."⁶ وارتكز المفهوم في سياق تطوره الفكري إلى قاعدة فلسفية كبيرة هي قاعدة المعتقد الليبرالي. هذه القاعدة التي تسلم بأولوية الإنسان الفرد في الوجود. كما تسلم بالقيمة المطلقة للحرية، وتعتقد بالأهمية اللانهائية لقدرات العقل

¹ - سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وأثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، دار المهجر، ص22

² . المرجع نفسه، ص 23 .

³ . المرجع نفسه ، ص 22 .

⁴ . المرجع نفسه ، ص 22 .

⁵ - كمال عبد اللطيف، مفاهيم ملتبسة في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1992 ، ص 39 ، 40 .

⁶ - كمال عبد اللطيف، التفكير في العلمانية إعادة بناء المجال السياسي في الفكر العربي المعاصر، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2007 ، ص 53.

الإنساني.¹ فهي تعني تحول مركز تطلعات البشرية من القيم اللاهوتية المرتكزة على ضمان الحياة الآخرة إلى القيم الدنيوية المبنية على تحسين شروط الوجود الإنساني في الدنيا وهو تحول أفرزته الزعة الانسانية الصاعدة، وهذا ما يعني أن الفضاء العلماني قد تشكل "بالتغلب على قوى الغيب والتحرر من سلطة المقدس".² وفكرة العلمانية مرتبطة بالتاريخ الأوربي في منشئها وتطورها منذ عصر النهضة، والصراعات التي كانت تدور بين رجال الكنيسة وأهل العلم والفكر والتي انتهت بفصل الدين عن الأمور الدنيوية.³ وقد شاع استخدام تعبير العلمانية أكثر في المجال السياسي، وكان المقصود به عدم اخضاع إدارة الدولة لشؤون الكنيسة، وهذا ما جعل البعض يرى فيها "فكرة مستوردة... وعلينا أن ننظر في مدى حاجتنا إليها، أو عدم حاجتنا".⁴

"ولفظ العلمانية laïcisme كما ترجمت إلى الثقافة العربية أحيانا تدل على كلمة العالم التي ترمز من جهة إلى مكانة المفاهيم العلمية، ومنزلة القوانين العلمية من تفسير قضايا ومشكلات المجتمع والكون. ومن جهة أخرى تبتعد عن القضايا الماورائية الغيبية، وفصل الدين عن الدنيا".⁵ هذا ما أدى إلى خلاف والتباس في اشتقاق هذه الكلمة، فتارة بفتح العين "علمانية" وأخرى بالكسر "علمانية" فإذا قرئت بكسر العين "علمانية" فمادتها كلمة "علم" أما القراءة الأخرى لهذه المفردة بفتح العين "علمانية" فهي مأخوذة من "عالم" أي التمظهر بمعالم وملامح الدنيا وهذا العالم الدنيوي، فيما يرى البعض أن "العلمانية تعني الأمرين معا، دون أن يكون

¹ . المرجع السابق، ص 40 .

² - أنظر، على حرب، الممنوع والممتنع - نقد الذات المفكرة - المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1995. ص 280.

³ - Fouad Zakariya. les arabes à l'heure du choix traduit de l'arabe par Richard Jacquemond 1991 p14

⁴ . محمد حامد الناصر، العصريون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الثانية، 2001، ص 412 .

⁵ - محمد الجبر، رؤية معاصرة في قضايا التحديث والعلمانية، دار علاء الدين، دمشق سوريا، الطبعة الثانية، 2008، ص 81. 82 .

بينهما تناقض سواء فتحنا العين أو كسرناها، فالمفهوم بصرف النظر عن المصطلح الذي تترجم الكلمة عنه، إنما يعني رؤية العالم أو الواقع والتعامل معه بشكل موضوعي، بعيدا عن الأحكام المسبقة والمطلقة والعاطفية أو الأخلاقية أو الدينية عامة. وفي هذا يلتقي مفهوم العلم بمعناه الموضوعي، بمفهوم الدنيا بمعناه المتحقق في مصالح وأوضاع ووقائع عملية، على أن هذا المفهوم بمعنييه لا يعني رفض الدين أو القيم أو الأخلاق أو التراث أو البعد الثقافي والروحي للإنسان.¹ وما يمكن استخلاصه عن مفهوم العلمانية بشكل عام، سواء قراءة بفتح العين أو كسرها، أنها مرتبطة في منشئها وتوظيفها بالمجتمعات الغربية وهي "الحدث التاريخي الذي قاد إلى الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية، والنتائج عن أزمة المشروع التي عاشتها أوروبا طيلة قرون."² وولادة الدولة العلمانية التي "تشتق مبادئها من قيم تتصل بالنشاط الإنساني الاجتماعي المادي المباشر، وليس من قيم مفارقة، إنها أداة لتطبيق الحق الإنساني، وليس لتطبيق الحق الإلهي."³ وإذا كان البعض ومنهم المفكر المغربي محمد عابد الجابري يعتقد أن "مسألة العلمانية في العلم العربي مسألة مزيفة (...)" ومن الواجب استبعاد شعار العلمانية من قاموس الفكر العربي وتعويضه بشعار الديمقراطية والعقلانية.⁴ فإن هناك من يتبنى موقف آلان تورين القائل: "ليس هناك ما هو أكثر عبثية ودمار من رفض العلمانية."⁵ ومنهم محمد أركون الذي يرى أن العلمانية "مفيدة جدا عندما نفهمها جيدا ونستطيع أن نتمثلها ونهضمها ونسيطر على تعاليمها وما تتيح لنا أن

¹ - محمد أمين العالم، الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، دار المستقبل العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1998، ص 111.

² - Burhan Ghalioun. Islam et politique . la modernité trahie. Alger.ed, CASBAH, 1976, p122.

³ - السعدي بن أزواو، مفهوم العلمانية عند محمد أركون، ضمن أعمال ندوة قراءات في مشروع محمد أركون، مخبر الدراسات الفلسفية والأكسيولوجية، جامعة الجزائر 2، طبعة 2011، ص 94.

⁴ - حسن حنفي، محمد عابد الجابري، حوار المشرق والمغرب نحو إعادة بناء الفكر القومي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 1990 ص 39.

⁵ - آلان تورين، نقد الحداثة، ترجمة أنور معيث، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص 281.

نفعله.¹ فكيف ينبغي أن نفهم العلمانية ونستفيد منها في نظر أركون؟ وما الجديد في تصوره للمفهوم من خلال قراءته له؟

يعتقد أركون أن "العلمنة تبقى مسألة حاضرة وملحة فيما يخص العالم العربي والإسلامي بشكل عام (...) وذلك من أجل تشكيل الدولة بالمعنى الحديث لكلمة دولة، كل القادة المسلمين يتمنون تطبيقها في مجتمعاتهم، لذلك فهم يحاولون إدخال الأفكار الحديثة إلى مجتمعات لا تزال عتيقة البنى والهيكل في معظمها."² ويشاطره الرأي برهان غليون الذي يرى بدوره أن "كل إصلاح للمجتمعات الإسلامية يمر عبر إصلاح الدولة لأنها مركزتمفصل كل السلطة."³ غير أن أركون في مقارنته لمفهوم العلمانية ينطلق من الأسس الفلسفية التي أنتج المفهوم في سياقها والخلفيات السياسية والتاريخية التي حددت مجاله والتعامل النقدي مع المفهوم ثم ينتقل إلى إعادة بناء وإنتاج المفهوم داخل إطار الشروط السياسية والتاريخية والفلسفية المستجدة. وإذا كانت العلاقة بين السيادة العليا والسلطة السياسية تأخذ معنى ومنظورا جديدا في المجتمعات العلمانية يختلف عن ذلك الموجود في الانظمة الدينية الألهوتية، فإن أركون يقوم بتحليل هذه العلاقة في التاريخ الإسلامي لينتقل إلى ضبط مفهوم العلمانية وبيان منشأها التاريخي وأدوارها الوظيفية في المجتمعات الحديثة، ويقارب موضوع العلمنة بروح نقدية من زاوية متجددة تأخذ بعين الاعتبار الواقع المجتمعي والسياق التاريخي لطرحها وإخفاق النتائج في طرحها منذ عصر النهضة العربية إلى يومنا هذا.

يحدد أركون مصطلح العلمنة بقوله: "حسب الاتمولوجيا (علم أصول الكلمات) فإن كلمة Laïcos اليونانية تعني الشعب ككل ما عدا رجال

¹ - محمد أركون، الإسلام والحداثة، (التبيين، العدد (3.2) 1990 الجمعية الثقافية الجاحظية، الجزائر). ص200.

² - محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمت هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 1996، 276.

³ - Burhan Ghalioun. Islam et politique . la modernité trahie.op cit, p152.

الدين، أى بعيدا عن تدخلهم في حياته، في لاتينية القرن الثالث عشر نجد أن Laïcus تعني الحياة المدنية المنظمة كما كانوا يقولون في ذلك الحين.¹ وهو تعبير عن التمييز بين أغلبية الشعب وطبقة رجال الدين (الكليروس) وعليه فالاشتقاق اللغوي يحيل إلى التمييز بين المجال الروحي المقدس والمجال الدنيوي الزمني.

في تحليل أركون للعلمنة يرى أنها تتجاوز مجرد التفريق بين الشؤون الروحية والشؤون الزمنية- على الرغم من اعترافه بأهمية مثل هذا التفريق - لأن في اعتقاده "تفريقا كهذا موجود عمليا في كل المجتمعات حتى عند ما ينكرو وجوده ويحجب بواسطة المفردات الدينية".² ولا يقبل الادعاء الشائع بأن الاسلام يختلف عن المسيحية في كونه دين ودولة أو بتعبير أعم دينا ودنيا حيث يقول: "فالأطروحة التي تضاد بين الإسلام والمسيحية وتقول، إن المسيحية قد فصلت بين الذروتين الدينية والدنيوية في حين أن الإسلام خلط بينهما منذ البداية. هي أطروحة متسعة وسطحية وغير مقبولة، والسبب هو أنها لا تأخذ بعين الاعتبار الشروط التاريخية لكلا الدينين".³ فالحالة السياسية والدينية للجزيرة العربية، في مطلع القرن السابع الميلادي، تبين اختلافات أساسية إذا ما قارنها بحالة فلسطين في زمن يسوع المسيح، كما أن الدولة" في الإسلام والمسيحية ظاهرة دنيوية قبل أن تكون دينية، إنما استعانت برجال الدين لتأصيل مشروعيتها".⁴

كما يرفض أركون من جهة أخرى ما يدعوها بالعلمانية أو العلمانية النضالية أو الإيديولوجية ويميز بينها وبين العلمانية حيث يرى أن الأولى متطرفة سلبية والثانية معتدلة إيجابية ويقول: "أنا انتقدت نوعا من أنواع

¹ - محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، مصدر سابق، ص 291.

² - محمد أركون، الفكر الاسلامي قراءة علمية، ت هاشم صالح، مركز الإنماء القومي ، الطبعة الثانية، 1996 ، ص 180.

³ - محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ت: هاشم صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر الطبعة الأولى 1993 ، ص 54.55.

⁴ - محمد أركون: تعقيب على بحث أنطوان فرغوث: الدين والعلمنة في أوروبا (العلاقات بين الحضارتين العربية والأوروبية، وقائع ندوة همبورغ، الدار التونسية للنشر، تونس 1985. ص 218.

التطبيق للعلمانية، ولم أنتقد العلمنة ككل.¹ ويبرر نقده لهذا النوع من العلمنة في كونها تطرفت وأصبحت عقيدة أيديولوجية تضبط الأمور وتحد من حرية التفكير حيث يقول: "يجب أن نحتاط جيدا. العلمنة لا ينبغي لها هي الأخرى أن تصبح عقيدة أيديولوجية تضبط الأمور وتحد من حرية التفكير كما فعلت الأديان سابقا. والعلمانية النضالية Le laïcisme المعادية للكهنوت في الغرب".²

بعد استبعاده للموقف الذي يختزل العلمنة في التفريق بين الجانب الروحي والجانب الزمني، والموقف الذي يرى في العلمنة مجرد استبعاد للمجال الديني، يعرض أركون تاريخية مفهوم العلمنة وفق مقارنة أنثروبولوجي؛ حيث يرى أن الإنسان من الناحية الأنثروبولوجية له حاجات ودوافع تتجه في اتجاهين أساسيين مترابطين: توجد أولا مرتبة الرغبة و l'instance du désir مع كل القوي الملحقة بها (...) هذه الرغبة تتأرجح ما بين الرغبة في الله (...) وصولا إلى الرغبة البسيطة المتمثلة في الإنجاب أو الغنى أو الهيمنة (...) أما المرتبة الثانية أو البعد الثاني الذي يمتاز به الإنسان - أي إنسان - فهو إلحاح الفهم والتعقل l'exigence de l'intelligibilité (...) حدث تاريخيا أن إلحاح الفهم هذا كان تعرض للمقاومة وحرف عن دربه الصحيح (...) إلى حد أن الإنسان اضطر للنظال والكفاح من أجل اكتساب حقه العميق في المعرفة والفهم. ضمن هذا الخط النظالي من أجل الفهم والتعقل (تعقل الأشياء ومعرفة) يندرج تاريخ العلمنة بالضبط.³

ما يفهم من هذا الطرح هو أن أركون يرى أن العلمنة تتعلق أساسا بإرادة المعرفة والفهم، وهي نضال من أجل تحرير هذه الإرادة من كل عائق أو ضابط لها، "فالعلمنة ينبغي أن تؤخذ كمصدر للحرية الفكرية وكفضاء

¹ - محمد أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، ترجمت هاشم صالح، دار الساقى، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 2001، ص 206.

² - محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، مصدر سابق، ص 293/294.

³ - المصدر نفسه، ص 293.292.

تنتشر فيه هذه الحرية.¹ "لأن العلمانية والحرية مفهومان مترادفان في اعتقاده، ويؤكد أركون على هذا المعنى في قوله: "فالعلمنة التي أفهمها تتركز في مجابهة السلطة الدينية التي تخنق حرية التفكير في الإنسان ووسائل تحقيق هذه الحرية (...). إن العلمنة تتركز فقط في الإلحاح على حاجة الفهم والنقد داخل توتر عام في الإنسان، بمواجهة ((ضابط)) ما موجود دائما وضروري أن يوجد سواء كنا نعيش في مجتمع الدولة - الكنسية أم في مجتمع الدولة القومية الحديثة."² ومنه فقناعة أركون هي أن العلمنة "أولا، وقبل كل شيء، إحدى مكتسبات وفتوحات الروح البشرية".³ وهي تواجه مسؤوليتين أو تحديين اثنين: "1 - كيف نعرف الواقع بشكل مطابق وصحيح؟ (...) 2 - أما المسؤولية الثانية (...) أن نجد صيغة أو وسيلة ملائمة لتوصيلها إلى الآخر دون أن نشرط حريته أو نقيدها."⁴

انطلاقا من هذا الفهم للعلمنة يعتقد أركون أنه من الضروري بل من الواجب علينا أن نعيد تعريف العلمانية، فيقول: "أنا شخصا علماني وأناضل في الأوساط الإسلامية تماما، كما أناضل هنا في فرنسا، من أجل علمانية منفتحة."⁵ فمشكلة العلمنة تظل مفتوحة للجميع، والمجتمعات الإسلامية في حاجة ملحة للتنظير للعلمانية لتحويلها من "مفهوم يعبر عن روح تجربة تاريخية معينة، إلى مفهوم قابل للاستثمار الرمزي في أفق فكري أشمل وأعم."⁶ فهناك حاجة داخل المحيط العربي والإسلامي إلى بناء نظرية للعلمنة من شأنها أن توفر الشروط والإطار الذي يمكنها من حل العديد من المشاكل التي تعانيها، "فوحده الموقف العلماني في اعتقاد أركون، بشرط أن

¹ محمد أركون، الفكر الاسلامي قراءة علمية، مصدر سابق، ص 183.

² - محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، مصدر سابق، ص 294.

³ - محمد أركون، العلمنة و الدين، الإسلام المسيحية الغرب، دار الساقي بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، 1996، ص 9 .

⁴ - المصدر نفسه، ص 10 .

⁵ - رون هالبر، العقل الاسلامي أمام تراث عصر الأنوار في الغرب (الجهود الفلسفية لمحمد أركون) ت: جمال شحيد، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، 2001، ص 33.

⁶ - كمال عبد اللطيف، مفاهيم ملتبسة في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1992، ص 44

نفهمه جيدا، قادر على تحريك الأمور وطرح الإشكاليات.¹ الخاصة بالغموض الذي يكتنف العلاقات بين مختلف المجالات الدينية والسياسية والعلمية في المجتمع.و" عقلنة العلمنة الممارسة واقعا في المجتمعات الإسلامية ولكن غير المنظر لها".² من أجل تحرير العقل من كل أشكال الوعي الخاطئ.

فأركون يدعو إلى علمانية منفتحة ذات وجه إسلامي مستنير ليست مناقضة للدين وإنما مناقضة لأن يحول الدين إلى نظام أيديولوجي هدفه الوصول إلى السلطة أو تحقيق المزيد من السلطة،³ وفي هذا الصدد يقول: "أقول بأن العلمنة التي أدعو إليها العالم الإسلامي ليست مضادة للدين، وإنما هي فقط مضاد لاستخدام الدين الأغراض سلطوية أو انتهازية أو منفعية. ينبغي تنقية الدين الإسلامي من كل الشوائب التي علق به على مر القرون."⁴ فالعلمنة التي يدافع عنها ويحاول التنظير لها تتركز في مجابهة السلطة الدينية وكل سلطة أخرى ، تخنق حرية التفكير في الإنسان ووسائل تحقيق هذه الحرية. وينفي أركون أن يكون الإسلام مغلق في وجه العلمنة كما يروج البعض، ولكي يتوصل المسلمون إلى أبواب العلمنة فإن عليهم أن يتخلصوا من الإكراهات والقيود النفسية واللغوية والإيديولوجية التي تضغط عليهم وتثقل كاهلهم،⁵ فمستقبل العلمنة في الإسلام يعتمد أساسا على الانتشار الواسع للحدثة العقلية أو الفكرية ولا يمكن لها أن تنتشر ضمن فراغ ثقافي كالذي تعيشه المجتمعات العربية والإسلامية، بكل إمكانياتها الايجابية.⁶

من كل ما سبق ذكره يمكن القول أن أركون يدعو إلى الأخذ بعلمنة يصفها بالمنفتحة والمستنيرة، لا تقصي أي بعد من أبعاد الإنسان المختلفة

1 - محمد أركون، العلمنة و الدين، الإسلام المسيحية الغرب، مصدر سابق، ص 7 .

2 - محمد أركون، الفكر الاسلامي قراءة علمية، ، مصدر سابق، ص 182.

3 - أنظر محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، مصدر سابق، ص 226.

4 - محمد أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى و ارادات الهيمنة، مصدر سابق، ص 203 ,

5 - أنظر، محمد أركون، العلمنة و الدين، الإسلام المسيحية الغرب، ص 59 .

6 - أنظر، محمد أركون، الفكر الاسلامي قراءة علمية، مصدر سابق، ص 181.

بما فيها البعد الديني الذي يعد في اعتقاده معطى من المعطيات الملموسة في التجربة الإنسانية وأنه موجود في جميع المجتمعات، والذي تعرض لعمليات الاستبعاد والحذف في تجربة العلمانية النضالية. ويدعو إلى عدم سيطرة بعد من الأبعاد عن الآخر، وضرورة فصل مختلف ذرى الوجود الاجتماعي عن بعضها البعض، وهذا الذي جعل أركون ينتقد نمط العلمانية النضالية التي يرى أنها "اختزلت العامل الديني إلى مجرد فضلة أو بقية من بقايا التاريخ ((التحرري)) (...) وخصخصة الدين عن طريق حذفه من البرامج التعليمية التي تقرها وزارة التربية الوطنية، قد ولدت جهلا ضارا بالبحث النقدي عن المعنى".¹ وهو بهذا الموقف لا يدعو للتراجع عن فكرة العلمنة بمعنى فصل الدين عن الدولة وإنما يدعو لمراجعتها عن طريق التفكير بمسألة العامل الديني/ والعامل الدنيوي بصفتهما بعدين لا يتجزآن من أبعاد الإنسان.²

يمثل أركون الاستثناء من بين المفكرين العرب عامة في اهتمامه بالعلمانية بوصفها موقفا من قضية المعرفة،³ فالعلمنة التي يتبناها ويدعو إلى ضرورة إعادة تعريفها والتنظير لها هي في الأساس علمنة ذات طابع معرفي، غايتها تجسيد الحق الإنساني في المعرفة عن طريق التحرر من كل العوائق والسلطات التي تحجر هذا الحق سواء كانت دينية أو سياسية أو حتى معرفية، لأنه يرى أن الطريق لتحديث المجتمعات الإسلامية والعربية يمر عبر "الفكر العلماني المنفتح والممارس بصفته موقفا نقديا تجاه كل فعل من أفعال المعرفة، وبصفته البحث الأكثر حيادية والأقل تلونا من الناحية الأيديولوجية من أجل احترام الآخر وخياراته، هو أحد المكتسبات الكبرى للروح البشرية، وهذه هي العلمنة الحقيقية".⁴ وهذا ما جعل المنهج العلماني يشكل لدى أركون هاجسا قويا في كل أبحاثه وفي كل تدخلاته، ومن مسألة العلمانية مسألة إستراتيجية، بل أكثر من ذلك، إنها مسألة حياتية معيشية،

¹ - محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى نقد الخطاب الديني، ت: هاشم صالح، دار الطليعة بيروت لبنان، الطبعة الثانية 2005، ص 59

² - أنظر، محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، مصدر سابق، ص 274.

³ - أنظر، عادل طاهر، الأسس الفلسفية للعلمانية، دار الساقي، ط الثانية 1998، ص 39.

⁴ - محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، مصدر سابق، ص 57.

وليس نظرية ترفهية. ويعتقد أن هذا المفهوم الفلسفي الواسع الكوني الذي يقترحه، سيتيح استخدام المصادر الثقافية الخاصة بالفكر الاسلامي من أجل حث المسلمين اليوم على فهم المكتسبات الإيجابية للعلمنة أو كما يسميها الدينونة، بشكل أفضل وتبنيها.¹ وهو في طرحة هذا يركز على المضمون أو المسمى دون الاسم الذي يرى أنه يثير نفور الكثير من المسلمين للوهلة الأولى، ويخشونه كثيرا لأسباب تاريخية، ويعتقد أنه لا خطر في التخلي عن كلمة العلمنة إذا تحقق مضمونها ومعناها، لأنها مفهوم عرضي تاريخي وليس أزلي أو سرمدى.² غير أن البعض من مقدري دوره المعرفي وجرأته النقدية يرى فيه موقفا يحمل على الالتباس والمجازفة لأن ثورة أو قطيعة على مستوى العقل، الأسماء فيها لا تقل أهمية عن المسميات، وتغيير الأسماء هو المقدمة أو الشرط الضروري لتغيير المسميات.³ كما أنه في موقفه هذا يلتقي بمعنى ما مع طرح الجابري الذي دعى إلى استبعاد شعار العلمانية وتعويضه بشعار الديمقراطية والعقلانية تحت مبرر أنه شعار يعبر عن حاجيات بمضامين غير متطابقة مع تلك الحاجيات.⁴

خطاب أركون في العلمانية يمثل قطيعة مزدوجة؛ مع الخطابات الراضية والمعادية للعلمانية في الفكر العربي الاسلامي وهي خطابات تؤسس مفهومها عنها بأغراضها التي قامت عليها منذ عصر النهضة الأوروبية في فصل الكنيسة عن الدولة، هذا من جهة، ومع الخطابات المنطلقة من شعار سطحي رائج هو "الدين لله والوطن للجميع" والمروجة لها والتي تعتبرها حلا سحريا، ويدعو إلى علمانية منفتحة وإيجابية تأخذ البعد الديني والروحي في الحسبان، وبذلك يمكن أن يكون هذا الخطاب النقدي نقطة بداية لمرحلة جديد يتم فيها إعادة تعريف المفاهيم وابتكارها كوسيلة للتحرر من التبعية الفكرية والثقافية التي ليزال الفكر العربي منذ مطلع

¹ - أنظر، محمد أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، مصدر سابق، ص 103.

² - أنظر، المصدر السابق، ص 103.

³ - أنظر، جورج طريشي، من انحضة إلى الردة - تمرقات الثقافة العربية في عصر العولمة - دار الساقي

بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2000، ص 137

⁴ - أنظر، حسن حنفي، محمد عابد الجابري، حوار المشرق والمغرب نحو إعادة بناء الفكر القومي العربي،

مرجع سابق، ص 39.

عصر النهضة قابعا فيها. فأركون يرى "أن هناك مفهوما آخر للعلمانية: مفهوم لا يستبعد البعد الديني الروحاني وإنما يستوعبه ويحتضنه ويشعر الإنسان بوجود غائية في الحياة، بوجود معنى نهائي وأخير".¹ إن هذا المدلول الذي يعطيه أركون للعلمانية لا ينحصر ضمن حدود جغرافية أو ثقافية أو فكرية كما هو شأن الكثير من المفكرين العرب ومنهم محمد عابد الجابري بل يبقى منفتحا مستوعبا للإرث الثقافي الإنساني دون التقيد بخصوصية ملازمة لهذه الثقافة أو تلك. فهو يطرح "فكره حول العلمانية ويدافع عنها كقيمة إنسانية تشمل العالم الإسلامي، ولكن في إطار من ضرورة التذكير بأن يوضع في الحسبان خصوصيات تلك الثقافة في تاريخها، كما أن دفاعه عنها لا يخلو من نقدها، ونقد الأشكال الخاصة التي استعارتها في التاريخ والتناقضات التي تمخضت عنها، والتي يجب تجاوزها".² وهذا الذي جعل البعض يرى أن تحليل أركون "لمسلمات العلمانية وخلفياتها ومحاولات تخليص المفهوم من صميمته وتحويله إلى أداة للفهم النظري التاريخي القابل للتوظيف في دائرة الصراع السياسي والأيديولوجي عند العرب"،³ يعد من المساهمات الكبرى. في تناول العلمانية. التي عرفها القرن العشرين على صعيد الفكر. بتجاوزه لما درج عليه الفكر العربي الاسلامي من نقل ميكانيكي وسطحي للمفاهيم إلى طور جديد يرتكز على إعادة بناء وتوظيف المفهوم وتبنيته وفق المتطلبات الداخلية، حيث يرى عبد الوهاب المسيري أن أركون قد "وضع يده على كثير من الإشكاليات الكامنة في ظاهرة العلمانية في محاولة تسميتها وتعريفها، لأن موقفه منها يتسم بدرجة عالية من التركيب، لذا فهو يرفض الثنائية التقليدية الصلبة: العلماني في مقابل الإيمان أو الديني. ويبذل محاولة جادة لتجاوزها".⁴

¹ . محمد أركون، تحرير الوعي الاسلامي. نحو الخروج من السياجات المغلقة، مصدر سابق، ص 69.

² . محمد أركون، الأنسنة والإسلام مدخل تاريخي نقدي، ت: د. محمود عزب، مصدر سابق، ص 8.

³ . عاهدة طالب، الفكر العلماني بين انغلاق الهوية وأسئلة العصر، ضمن، مجلة فلسفات معاصرة، العدد التاسع 2010، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 2010، ص 160.

⁴ - عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مج 1، دار الشروق القاهرة، الطبعة الأولى،

ونخلص في الأخير أن المقاربة الفلسفية لمفهوم العلمانية كما بلورتها مساهمات محمد أركون قد حققت قفزة نوعية في إعادة بناء مفهوم العلمانية في الخطاب السياسي العربي، حيث تخلصت طريقته في التناول من الطابع التحليلي الذي يستعرض ملامح ومزايا الوصفة العلاجية، لنمط غير سوي من الممارسة السياسية، واتجه بنظره إلى ما يمكن اعتباره مساهمة إنسانية عامة في النظر إلى مشروع العلمانية، تاريخاً، ومستقبلاً، حيث تحولت في نصوصه علمانية القرن الثامن عشر مجرد مرحلة من مراحل تشكل المفهوم في الفلسفة السياسية الحديثة والمعاصر، وهذا ما يبعد عنه تهمة التغريب في كونه لا يستند إلى مرجعية جاهزة مرتبطة بسياق تاريخي آخر غير التاريخ العربي الإسلامي، فقد كان أركون حريصاً في تحليلاته المقارنة على توجه النقد للكثير من المعطيات والمظاهر المتعلقة بالتاريخ الأوروبي المعاصر وعلاقتها بالإشكاليات التي تطرحها العلمانية في الفكر السياسي المعاصر، كما كان حرصه في الوقت نفسه على التسليم بأهمية التطورات على المستوى المحلي في بلورة تصور باستطاعته الإجابة على متطلبات الواقع الراهن.

